

الاتجاهات الحديثة فى التربية

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا الموضوع جدير بنا أن نجيب عن الأسئلة الآتية رجاء الوصول إلى شىء من التحديد فيها : ما التربية الحقة ؟ وما التكوين الصحيح ؟ وما الغاية من تدريس هذه المواد المختلفة ؟ أو بعبارة أوضح ما وظيفة المدرسة ؟ وما عمل المربي ؟ وهل فى رأيك أن يكون التعليم إجبارياً وهل لذلك أثر فى المجتمع ؟

يقول «جون ديوى» موفراً علينا مؤنة الإجابة عن هذه الأسئلة :

« نقصد بالتعليم الصحيح ذلك المحصول المدرسى الذى يندفع إلى تحصيله التلاميذ من تلقاء أنفسهم ، كى يكتسبوا المهارة فى التفكير فيتغلبوا على مشاكل الحياة المستقبلية » وإذن فليس التعليم هو حشو الأذهان الصغيرة بما لا قبل لها بتحمله ، ولكنه إقبال صحيح من التلاميذ على العمل المدرسى والمواد الدراسية ، يعالجونها بأنفسهم ومجهودهم الشخصى ولا يعتمدون على سواهم .

وعلى ذلك فالتربية الحقة هى التى تبنى على مثل هذا النوع من التعليم التلقائى الحر ، والذى فيه يجابه التلميذ مشاكله الصغيرة بذاته ، ويروض نفسه عليها . معنى هذا كله أن وظيفة المدرس ليست هى فى دفع التلاميذ إلى استظهار الدروس أو فى حملهم على استرجاعها ، ولكن فى قيادة هؤلاء التلاميذ قيادة هينة ، فيها كثير من الأناة والترفق ، حتى يندفعوا بأنفسهم إلى حل ما أمامهم من المشكلات العلمية أو العملية كل وفق ما يرى حسب هواه . وهنا فقط يصح أن نضمن انتباه التلاميذ إلى أعمالهم ، وبهذا أيضاً يصح أن نطمئن إلى أنهم سوف لا يسمون هذه الأعمال ، فلا نتوقع حدوث ما نراه عادة من انقطاع التلاميذ عن المدرسة فى نهاية التعليم الأولى أو الابتدائى لا لشيء إلا لأهم لا يشعرون باطمئنان فى وجودهم بتلك المدارس ، بل لأنهم قد أحسوا بعد الخروج منها كأنهم قد أفلتوا من غياهب السجون ، إذ أنهم قد تحرروا من ضغط

شديد ؛ وإذن فسياسة التعليم تنجح أو تفشل بقدر ما يمكنها من جعل الحياة المدرسية شائقة جذابة .

تلك هي التربية الحديثة ، وذلك هو اتجاهها الحالى . وقد يكون من الصعب بل من العسير على من يؤرخ حركة فكرية اجتماعية أن يعين مبدأها بالتحديد ، وإنما اصطلاح مؤرخو الحركات العقلية والاجتماعية على اعتبار حوادث معينة على أنها بدايات أو نهايات . وعلى هذا النحو فعل رجال تاريخ التربية ، فانفقوا أو كادوا يتفقون على أن جان جاك روسو هو رسول التربية فى العصور الحديثة ويعتبر فاصلاً بين عصرين من عصور التربية هما :

(أ) التربية القديمة ، وشعارها المادة ويرمز لها باسم *Matreocentricism*

(ب) التربية الحديثة ، وشعارها الطفل ويرمز لها باسم *Paedocentricism*

وجان جاك روسو ، أو رسول التربية فى العصور الحديثة ، هو الذى استطاع بهكمه المر ، وسخريته اللاذعة أن يسفه أحلام المربين فى عصره ، وأن يضع أيديهم على مواضع الداء من نفوسهم ، وأن يشخص للناس دواءهم فى عبارة يسيرة من عباراته الخالدة وذلك حيث يقول : « إننا لا نعلم شيئاً عن الطفولة ، وكلما مضينا فى تربية الأطفال - ونحن على جهل بطبيعتهم - ازددنا تورطاً فى الأمر ، وضلالاً فى الطريق وبعداً عن الصواب . والعجيب أن المربين والقائمين على أمور التربية ، قد أضنوا أنفسهم كثيراً ، وأجهدوا عقولهم فيما يجب على البالغ أن يتعلمه ، وما يجب على المدرس أن يعامله به ، ولكنهم نسوا من هو أهم من البالغ شأناً ، وأحق منه بالعناية ، وهو الطفل الذى أغفلوا شأنه ، ولم يلتفتوا إليه » .

لقد كانت آراء هذا الفيلسوف الذى يصح أن نطلق عليه « نصير الطفل » أول شعاع من النور ألقى على طارق التربية الشكلية ، فأبان عن فسادها وكشف عن سوائتها ، ونبه الناس إلى ضرورة إصلاحها مهما كلفهم ذلك من جهد وعناء ، كما كانت آراء ذلك الفيلسوف أول بوققة صهرت ما حولها من نظم وعقائد وصاغت منها نظماً مستحدثة وعقائده جديدة ، وراح الناس يؤمنون بهذا الجديد من النظم والمعتقدات ، ولقد تشبع نفر غير قليل بمبادئه وعملوا على تطبيقها ،

وأولئك هم : بزداو ، وبستالوتزى ، وفروبل ، وهربارت ، وغيرهم . وكان هؤلاء فضل عظيم في تهذيب أفكار روسو وتشذيب ما كان فيها من زوائد ، فهم في الواقع طلائع التربية الحديثة .

فروسو هو صاحب فضل التفكير في الطفل ، وتبعه في ذلك كل من : بستالوتزى وفروبل ، وفي أوائل القرن التاسع عشر نادى كل من Kant كانت ، وهربارت بضرورة تأسيس التربية على أسس من علم النفس ولكن كانت تنقصهم الناحية العلمية عن الطفل ، وأولئك جميعاً هم طلائع التربية الحديثة ، الذين مجدوا الطفولة ولكنهم لم يعرفوها كما نعرفها الآن .

ويتقدم بنا تاريخ التربية إلى القرن التاسع عشر ، فتجد في بداية هذا القرن أن الحركة الحديثة قد نشطت على يد نفر من رجال علم النفس الذين قصلوا لدراسة الطفل . ولم تبدأ هذه الحركة في رقعة الشطرنج الأوربية أو في أى جزء آخر من أجزاء العالم القديم ولكنها بدأت في الدنيا الجديدة ؛ بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية . ذلك : لأن حركة التجريب وجدت من يؤمن بها في هذا العالم الجديد ، وهذه الحركة يرجع الفضل فيها إلى العلامة « شتالى هول » بليمور ، وأسس في الولايات المتحدة أول معمل لعلم النفس سنة ١٨٨٧ (في أول مجلة سيكولوجية في العالم معروفة باسم The American Journal of Psychology) ثم انتقلت الحركة عبر المحيط الأطلسي ، وظهرت في إنجلترا على يد الأستاذ وارنر Warner الذى ألف كتاباً فريداً في نوعه يعرفه باسم « الأطفال وكيفية دراستهم » سنة ١٨٨٧ Warner : The Children How to study them والأستاذ سلى Sully ، فهذان تأثرا بتلك الحركة فيما بعد وأسسوا مجلة علم النفس

الإنجليزية The British Journal of Psychology

ثم ظهرت الحركة في فرنسا على يد Binet بينيه مؤسس مقياس الذكاء ثم انتقلت إلى ألمانيا مهد علم النفس التجريبي على يد فخر Fichner مؤلف كتاب Psycho-physics وكان فند Wünder أول من أسس معمل علم النفس هناك . ومن ألمانيا انتقلت إلى سويسرا على يد الأستاذ كلاباريد عميد معهد جان جاك روسو : ولم تقتصر هذه الحركة التجريبية لدراسة الطفل والطفولة على بلاد الغرب بل انتقلت إلى الشرق فظهرت في مصر في معاهد التربية . وكان

عميد هذه الحركة الأستاذ إسماعيل القباني ، وظهرت في بغداد في دار المعلمين العالية كما أنها وجدت مؤمنين بها في الهند والصين واليابان .

ومنذ بداية القرن العشرين أخذ المربون يستفيدون من نتائج الأبحاث السيكولوجية وفتحت المدارس أبوابها لهذا التطور الجديد وبدأت طرق التربية الحديثة تجد طريقها إلى الوجود ، فظهرت مدارس منتسوري ، ودالتن ، والمشروع ومدارس كوزنيت وويتكا ، وذكروني ونلاحظ أن مدارس الدولة كنظمها الاجتماعية هي عنصر محافظ ولذا كان لا بد من مرور زمن طويل بين ظهور النظريات وتطبيقها في المدارس . ومن ذلك يتبين لنا أن هذه ظاهرة ليست بالغريبة ولا تتعارض مع طبائع الأشياء . ونلاحظ أن مدارس الطراز الحديث هي أكثر انتشاراً في الولايات المتحدة ، لأن الأمريكيان أسرع الناس للأخذ بكل جديد ، فهي دولة فنية جديدة ، ليس لها تقاليد تقيدتها وتخضع لها ، زد على ذلك ما امتاز به الشعب الأمريكي من عقلية عملية تقيم وزناً للتجارب وتقبل عليها بكل همة ونشاط .

والآن نتساءل عن أهداف التربية الحديثة، وعن اتجاهاتها : — إن نظرة فاحصة لطرق التربية الحديثة ترينا أن بعضها يختلف عن بعض من ناحية ويتفق من ناحية أخرى ؛ تختلف في الأسماء ولكنها تتفق في الروح العامة ، تختلف في الوسائل ولكنها تتفق في الغايات البعيدة ، تختلف في الغايات القريبة ولكنها تتفق في الغايات البعيدة فمثلاً تختلف طرق منتسوري . ودالتن ، والمشروع . بعضها عن بعض في غاياتها القريبة ولكنها تتفق في غاياتها البعيدة ؛ فطرق منتسوري ترمي إلى الحرية وتدريب الحواس وجعل التربية قائمة على عنصر اللعب . أما طرق دالتون فهي تؤكد الحرية والتعاون . وطريقة المشروع ترمي إلى وضع غاية لنشاط الطفل وإلى توضيح الغرض من كل عمل وهذه الطرق جميعها تتفق في الأهداف البعيدة فتعمل على مراعاة طبيعة الطفل وعلى تشجيع ذاتيته ، وتراعي حاجيات الزمان والمكان ، أي : حاجات المدنية الحديثة ، فالاعتبارات الأولى لا تخرج عن أن تكون اعتبارات سيكولوجية . وأما الاعتبارات الثانية فهي اعتبارات اجتماعية ، فالتربية الحديثة إذن حركة واحدة ذات قطبين ؛ طفل

ومجتمع . ومراعاة طبيعة الطفل تتضمن قيماً واعتبارات سيكولوجية ، ومراعاة طبيعة المجتمع تتضمن قيماً واعتبارات اجتماعية . وجميع رجال التربية يعترفون بقيمة الاعتبارات السيكولوجية ، والاجتماعية على السواء ، إلا أن هناك خلافاً في الدرجة فالسير برسى نر يؤكد قيمة الاعتبارات السيكولوجية إلا أنه لا يهمل المجتمع أما جون ديوى فيؤكد الناحية الاجتماعية ، ولكنه لا يهمل الاعتبارات النفسية . وتظهر الاعتبارات النفسية واضحة في كتابه « المدرسة والطفل » ونزعته الاجتماعية تعلن عن نفسها في كتاب « المدرسة والمجتمع وتمتجج » الناحيتان في كتاب « مدارس الفن » .

أولاً : الاعتبارات السيكولوجية (النفسية)

إن فكرة احترام الطفل والطفولة هي أهم مميزات التربية الحديثة . على أن التربية التقليدية - المتأثرة على الخصوص بالتربية اليونانية والمسيحية - كانت أبعد من أن تحترم الطفولة بل إنها كانت تعمل على قمعها : فجماعة اليونان كانت تأخذ الأطفال بالقسوة والشدة ، أما الرومانيون فقد تطرفوا في استعمال القسوة وغالوا في الالتجاء إلى السياط والعصى . وفي القرون الوسطى كان الاعتقاد السائد أن طبيعة الطفل شريرة فاسدة ويجب قمعها وهذا أدى إلى الرهينة ، والزهد ، وكانت المدرسة بوجه عام « سجن الطفولة » وجوها جو سلطة وشدة .

وفوق هذا كانت التربية القديمة تهتم أكثر ما تهتم بمشحو أذهان الأطفال بالمواد الدراسية المختلفة ؛ رضوا بذلك أم لم يرضوا . ولذا سمى ذلك العصر بحصر المادة Matreocentricism بينما أهملت ميول الأطفال إهمالاً تاماً إذ كان المدرسون يفترضون في الطفل « أنه مصغر رجل Young Adult » له ما للراشد من الملكات والاستعدادات ولذا كانوا يقيسون أعماله ويقدرون حركاته وسكاته بمعايير الرجال . حقاً أن التربية في جميع العصور لم تخل من بعض المدرسين الذين يفهمون نفسية الأطفال كما يفهمون مادتهم ، ولكن كانت الطريقة العمدة أن يهتم المدرس بمادته أكثر من اهتمامه بتلميذه ، وبعبارة أخرى : قد نسى المدرس أن عملية التعليم تنصب مفعولين - على حد تعبير سير جون آدمز - أحدهما : التلميذ ، والآخر المادة لذا لم يكن عجباً ألا يميل الطفل إلى المدرسة بل يرى

في المدرس ذلك الشخص الذي يأمر وينهى ويتكلم ويصغى له الجميع . هذا إلى أن التربية التقليدية أهملت الحرف والصناعات والأعمال التي يقوم بها الأفراد في حياتهم فأهملت التعاون بين التلاميذ بل إنها رأت في إرشاد الزميل لزميله خروجاً على النظام ، فضلاً على أن موقف التلميذ في المدرسة كان موقفاً سلبياً ، موقفاً لا يعلو أن يكون فيه مستمعاً للمدرس ، وبعبارة أخرى : يكون مثل المدرس والتلميذ كمثل جهازين أحدهما للإرسال ، والآخر للاستقبال ؛ فيرسل الجهاز الأول ما به من الأخبار للجهاز الثاني الذي يرددها - بدون تقدير لقيمتها - ترديداً آلياً ويحتفظ بشيء بعد ترديدها . أهملت التربية القديمة رغبة التلميذ فهو يلقي المادة سواء أوافقت طبيعته ومزاجه أم لم توافق ، ولذا فهي تتطلب مجهوداً شاقاً من المدرس في إثارة انتباه التلاميذ ، وإيجاد الرغبة عندهم فيما يعطى لهم من الدروس . بل إن المحافظة على هذا الانتباه وهذه الرغبة طول مدة الدرس كانت من الصعوبة بمكان لأن التلميذ هنا لا يعمل بل هو مستمع فقط ، ولذا يكون لديه من الفرص ما يسمح له بشروء ذهنه أو بالعبث بالنظام .

وتهم التربية الحديثة بالطفل فينادى جون ديوى « بأن يكون الطفل محوراً للبداية وهو المركز وهو الغاية من عملية التربية » ، فهي تراعى ميوله الحاضرة وحاجاته النفسية ، وتهم بحاجة الطفل للأمن ، وحاجته للمخاطر فهما نزعتان ظاهرتان في المجتمع ، وفي مظاهر نشاط الإنسان . وللإنسان نوعان من مظاهر النشاط مظاهر نشاط احتفاضية ومظاهر ابتكارية . والعلاقة وثيقة بين الابتكار والمخاطرة ولولاه لما لمسنا أى نوع من أنواع التقدم في ميادين الفن والعلم ، ويرى بعض الباحثين أن المخاطرة ليست سوى نتيجة للشعور بالأمن . فالليل إليها يتجلى إذا توفر الشعور بالأمن ، فالطفل الذي يهاجم غيره إنما يفعل ذلك لوثوقه من قوته . فالحاجة للأمن إذاً هي الحاجة الأساسية والرغبة في الأمن رغبة لا يمكن إغفالها . والطفل لا يتقدم بسهولة ، في ميدان من الميادين إلا إذا اطمأن إليه وفقدان الأمن ينتج عنه مشاكل لا حصر لها . فالطفل في حاجة إلى الحب والعطف وإلى اعتراف الغير به . وهو بحاجة إلى الحرية والضببط في آن واحد ،

وبحاجة إلى الشعور بالنجاح ، وحاجته إلى الشعور بالنجاح مرتبط تمام الارتباط بحاجته للأمن . فالطفل يتطلع إلى النجاح ويميل إليه . والنجاح هو مفتاح الثقة بالنفس . ومتى وثق الطفل بنفسه شعر بالأمن فيتقدم ويرتقى سلوكه ويزداد نجاحه إذا شجعه من حوله وأظهروا الاغتياب بنجاحه وقد قيل « لا ينجح في الحياة مثل النجاح في الحياة » .

وهذا التغير في الاتجاه العقلي إزاء الطفل والطفولة نبه الأذهان إلى أن المدرسة قد خلقت للطفل ولم يخلق الطفل لها ، وبذلك أصبح الطفل مركزاً للطرق والمناهج الدراسية ، وأصبحت غرائزه وميوله — إلى حد كبير — هي المادة التي يشتغل عليها المدرس والمادة التي تعتمد عليها الطريقة .

ثانياً : الاعتبارات الاجتماعية :

إن التربية التقليدية السائدة الآن في معظم مدارسنا متأثرة إلى حد كبير بالتربية اليونانية القديمة ومدينة اليونان ، تلك المدنية الأرستقراطية النشأة التي كانت ترجع إلى ظروف وملابسات اجتماعية خاصة ، فقد كان المجتمع اليوناني في ذلك الوقت يتكون من طبقتين : طبقة الأحرار أو السادة ، وطبقة العبيد والإماء . فالسادة هم الحديرون بالحياة الحقة السعيدة ، وطبقة العبيد تؤخذ بالعمل اليدوي ، وتكد في سبيل العيش لتوفر أسباب الترف للسادة ، ومن ثم كانت التفرقة بين التربية الحرة التي تهتم بالحياة وتجميلها ، ووقت الفراغ وقضائه في المتعة والترفيه — وبين التربية المهنية التي تنكب على التسريب العملي في الأعمال الآلية — أقول كانت هذه التفرقة — بعيدة عن كل ما يرق العقل ويهذب الذوق وينمي الشعور بالجمال . وكان اليونانيون القدامى يعتقدون أن الإنسان لا يستطيع أن يخدم سيدين : العلم ، والصناعة . ولقد كان لهذه النزعة الفكرية أثرها في مناهج الدراسة . فكان للعلوم الأكاديمية المقام الأول وكانت مواد الدراسة كله نظرية ومجردة وبعيدة عن الحياة . تلك هي الحالة التي كانت سائدة في بلاد اليونان والتي ما زلنا إلى حد ما متأثرين بها ، برغم زوال الظروف الاجتماعية التي أوجدتها ، ولكن بانتشار الديمقراطية في المجتمعات انتقلت التربية إلى جميع أفراد المجتمع فأصبح تعميم التعليم ضرورة اجتماعية ، وأصبح لحركة

تعميم التعليم بين جميع الطبقات ووزن عظيم في الدولة المستنيرة . وقد انتقلت الحركة من العالم الغربي إلى العالم الشرقى . ودراستنا لما طرأ على نظم التربية والتعليم بعد الحرب العالمية الأولى من تغير تثبت هذا الاتجاه . ويؤكد الأستاذ كاندل Kandel « أن النزعة العامة ترمى إلى توحيد نظم التربية والتعليم لطبقات الشعب . فحركة المدرسة الموحدة في ألمانيا ، وحركة الـ *Ecole unique* في فرنسا إنهما إلا دليلان على هذا الاتجاه الشائع بين الدول » فالغرض من حركة المدرسة الموحدة أو المشتركة هو تزويد أبناء الأمة عامة بالقدر اللازم من الثقافة لإعدادهم للمعيشة في مجتمع راق ، والمساهمة في حياته ، وتهيئة الفرصة لإظهار مواهبهم وتنميتها ، حتى يبلغوا العمر الذى يمكن الحكم فيه على المواهب المختلفة . وتنوع التعليم تبعاً لها . وحركة المدرسة الموحدة مبنية في أساسها على اعتبارات سيكولوجية : على مبدأ مراعاة الفروق الفردية التى أثبت علم النفس الحديث أهميتها ، وحمم مراعاتها في نظم التربية . فهى إذاً حركة بعيدة عن ذلك المعيار الذى كان أساس التربية القديمة - معيار التفرقة بين طبقتين منفصلتين . طبقة تختص بالحكم والجاه . وطبقة قضى عليها بالخضوع والذلة .

ومن مستلزمات الديمقراطية « الحرية » وستكلم عنها بالتفصيل فيما بعد : فالديمقراطية وهى حكم الشعب بوساطة الشعب ومن أجل الشعب يجب أن تسود روحها في المدرسة ويقول ديوى في ذلك « إذا دربنا أطفالنا على تلقى الأوامر وعمل الأشياء مجرد أنهم أمروا بعملها - وفشلنا في إعطائهم الثقة لي عملوا ويفكروا لأنفسهم - فإننا نضع حاجزاً منيعاً في طريق التغلب على المعايير الحالية لنظامنا ، وفي سبيل تدعيم حقيقة المثل العليا للديمقراطية » فالتربية الحديثة تعمل على التوفيق بين الاعتبارات السيكولوجية والاعتبارات الاجتماعية . أى بين حاجات الطفل وحاجات المجتمع ، وتعمل على الاستفادة من جميع القيم بقدر الإمكان : فهى تراعى مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على السواء . والحرية التى هى الدعامة الأولى للديمقراطية تتفق مع طبيعة الطفل من ناحية وتتفق مع حاجات المجتمع من ناحية أخرى .

المبادئ الحديثة في التربية :

أما المبادئ الحديثة في التربية فهي :

- (أ) مبدأ الحرية .
- (ب) مبدأ اللعب .
- (ج) مبدأ تحقيق الذاتية .
- (د) مبدأ تعلم الحياة بالحياة أو التعليم عن طريق النشاط .

مبدأ الحرية :

أما عن مبدأ الحرية فنقول : إن التربية الحديثة ترمي إلى إعطاء الأئفان قسطاً كبيراً من الحرية ، ليكون المجال واسعاً لإظهار شخصياتهم على حقيقتها ، ولكي يشعروا بهذه الشخصية ويتمكنوا من كسب الخبرة والتجارب المختلفة التي تجعلهم يعدلون سلوكهم من تلقاء أنفسهم ، والتي تعودهم تحمل نتائج سلوكهم راضين مختارين . فإرادة المرء لا ترتقي ولا تقوى إلا بتدريبها على العمل ، والإنسان لا يحترم الحرية ويتدربها قدرها إلا بالحرية ، ولا يتسنى للمرء أن يحصل على الاستقلال بالرأى والعمل إلا بالتدرب عليهما تدريباً متواصلاً من أول نشأته فإذا نشأ الطفل مجبراً - كما كان الحال قديماً - ونشأ على دوام الخضوع نرأى سواه ، محروماً من استعمال عقله ومواهبه في تصرف أمورهِ : صغيرها وكبيرها وما يوكل إليه من أعمال - شب فاقداً كل استقلال في الفكر والعمل .

والربية الحديثة تعمل على أن تكون أخلاق الطفل ومظاهر سلوكه المتنوعة صادقة - من نفسيته وباداه لا ملقاة عليه من الخارج ، فهي تعمل دائماً على أن تستعين بالطفل على تشكيل نفسه وتعديل سلوكه . وفي الواقع إن وظيفة المرابي الحديث هي تعويد الطفل تدريجياً أن يستغنى عنه ويعمل بغير إشرافه . وهذا ولاسلك صحيح في التربية العقلية .

وهكذا تغيرت الحال فقديماً كان المدرس قاسياً لا تفارق العصا يده ، أما اليوم فحدث رد فعل شديد في بعض النواحي ، وقام كثيرون يدعون إلى التأكيد الحر الطليق ، ويناشدون المدرس أن يطلق الحرية للأطفال كاملة غير

متقوصة ، وأن يحو سلطته بيده ويبقى أمام الأطفال مرشداً ليس غير ، كما تفعل المدرسة في طريقة منتسورى .

على أن أنصار مذهب الحرية قد يغالون به أحياناً مغالاة كبيرة تخرجه عن القصد منه فتصبح المدرسة فوضى لا يتسنى للمدرس أن يقوم فيها بتأديب حقيقي أو بتعليم نافع . وذلك كالمدرسة التي أنشأها « تلتوى » ، وكغيرها من المدارس الحديثة التي أساءت معنى الحرية في التربية ، فالحرية ليست هي الفوضى أو عدم النظام .

تطبيق مبدأ الحرية في المدارس الحديثة :

ولر الآن إلى أي حد طبقت المدارس الحديثة كدكرولى دالتن والمشروع مبدأ الحرية في معاهدها :

في مدارس دكرولى :

في مدارس دكرولى وهي التي أنشأها « أوفين دكرولى » المربي البلجيكي الشهير نرى الحرية متمثلة فيها إلى حد كبير ، إذ التلميذ فيها يبحث حول حاجاته وما يتصل بتلك الحاجات ، لا يقيدده في ذلك مدرس أو نظام أو موضوع ثابت ، لأن أساس الدراسة في تلك المدارس هو الميول الطارئة في كل شهر من شهور السنة ، ففي شهر يناير وفبراير مثلاً يشتد البرد ويشعر الطفل بالحاجة إلى التدفئة فيكون اهتمامه بالملابس والنار ليقى نفسه شر البرد ويتم له معرفة ذلك بحرية تامة عن طريق الأساليب الثلاثة المتبعة في تلك المدارس ، وهي : الملاحظة والربط والتعبير .

ومن ناحية أخرى يرى « أوفين » أنه إذا أدخل أحد التلاميذ بالحرية المعطاة له فإن المدرسة تقوم بتفهم التلميذ طبيعة ذنبه ونتيجته ، وتعمل على تعويده حكم نفسه وضبطها والحفاظة على النظام .

في مدارس منتسورى :

ومن الذين ساهموا بنصيب وافر في إدخال الحرية في المدارس الحديثة دكتورة منتسورى وهي سيدة إيطالية ولدت حوالى سنة ١٨٧٠ وشغلت في

البدائية بمعالجة ضعاف العقول شأنها في ذلك شأن أوفين دكرويل ، والحرية في نظرها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- (أ) الحرية الجسمية .
- (ب) الحرية العقلية .
- (ج) الحرية الخلقية .

ولقد كانت تعتقد أن الطفل كائن حي يتكون من جسم نام وعقل متسع تدريجياً ولكي ينمو الجسم ويتسع العقل يجب أن يتمتع الطفل بقسط وافر من الحرية الجسمية وقسط عظيم من الحرية العقلية .

أما الحرية الجسمية فتراها أوضح ما تكون في إلغاء منتسوري المقاعد المثبتة وإحلالها محلها مناضد و « كراسي » متحركة . وهي تعتقد تمام الاعتقاد أن الطفل لا يعتبر في حالة سكون إذا هو ركن إلى هذا عن طريق الإرهاب ، فحتمنا عليه عدم الحركة ، وإنما يمكننا أن نعتبر التلميذ محافظاً على النظام وفي حالة سكون إذا هو دفع إلى هذه الحالة بنفسه ، ولم يدفعه إليها خوفاً من العقاب ، ففي مدرسة منتسوري يتعلم الطفل كيف يتحرك وينتقل بكامل حريته ؛ وفي منتهى الهدوء والسكينة ، فهو حيناً يجلس على « كرسية الصغير » وحيناً يجلس على أرض الغرفة وهكذا . هذا إلى أنها جهزت فصولها بأحواض للماء . وصنابير في متناول الطفل ، وزودت كل حوض بفرش الأسنان والأظافر . ولكل طفل أدواته الخاصة .

ومن ناحية أخرى نرى الطفل في هذه المدرسة ليس مقيداً بنظام التعليم الفصلي ، الذي يحتم عليه البقاء في الفصل طيلة اليوم المدرسي دون أن يتحرك . بل نجد أن الطفل حر في أن يدخل الفصل أو يخرج منه كما يشاء . زد على ذلك أنه إذا فرض أن طفلاً تغيب عن المدرسة لمدة طويلة فإن منتسوري لا تهتم به ، ولكن إن حضر قبلته .

أما الحرية العقلية فمدارس منتسوري لم تقيد الطفل بزمن للمادة ، بل هو حر في أن يتقن من الأجهزة ما يناسبه ، ثم ينكب على فحص هذا الجهاز ، والمرشد وظيفته أن يكون في مؤخرة الفصل ، ولا يتقدم إلى مساعدة الطفل حتى

يطلبه بنفسه . كما أنه إذا رأى طفلاً من الأطفال أخطأ في تركيب جهاز من الأجهزة فالمرشد لا يتدخل . وتعتقد منتسوري أن الطفل الذي لا يمكنه أن يقوم بتركيب الجهاز الذي يستعمله لم يصل إلى الحالة العقلية التي تؤهله لفهم هذا الجهاز ، وجدير به أن يتركه حتى يتم نضجه العقلي .

ولقد استمدت دكتورة منتسوري هذا المبدأ (الحرية) من سيجوان Séguin الذي قال : إنه يجب إعطاء الطفل كامل الحرية في العمل وخاصة في استخدام اليدين لكي تساعده بذلك على النمو من الناحية العقلية ، وهي أيضاً متأثرة بالمبدأ الحديث القائل « حاول أن تفسر أقوالك بالأعمال بقدر الإمكان » .

أما الحرية الخلقية فلم تتسامح فيها مطلقاً ؛ فإذا أساء طفل إلى نفسه وإلى زملائه فإنها تترى وجوب إبعاده من الفصل ، أما إذا استخدم الحرية المعطاة له بحيث تتعارض مع مصلحة الأطفال الآخرين فإنها تأخذه إلى ركن من الأركان وتقوم بعلاجه فردياً .

أغراض منتسوري من الحرية :

أما أغراض منتسوري من الحرية فهي إسعاد الطفل ، لأنه يميل إلى الحصول على الحرية . ومن جهة أخرى نرى أن إعطاء الطفل الحرية من شأنه أن يكشف ميوله الطبيعية فتصبح مرشدة منتسوري معيناً للطفل في الكشف عن نفسه . وهي لذلك تشجعه على التفكير قائلة « اترك الطفل يعمل ما يفكر فيه » .

نقد مبدأ الحرية :

ولقد كان من الطبيعي أن توجه الانتقادات إلى تلك الحرية التي أدخلتها منتسوري في مدارسها ، فقد قيل : إن تلك الحرية ربما سادتها الفوضى وعدم النظام . ولكنهم نسوا أو تناسوا أن تلك الحرية مقيدة ؛ ذلك أن الأجهزة التعليمية تجبرهم على السير في الطريق الذي رسمته لهم منتسوري ، فلن يستطيع أحدهم أن يلعب إلا بالطريقة الخاصة التي تريدها المرشدة . كذلك نعتت طريقة منتسوري بأنها طريقة سهلة لينة ، فالطفل الذي أُلِف حياة الدعة عندما يخرج إلى ميدان الحياة لا يصبح قادراً على مواجهة صعوباتها . ولكننا في الواقع نرى أن الكثير من

أجهزة متسورى ليس سهلاً بالشكل الذى قد يتبادر إلى الذهن فكثير من هذه الأجهزة يحتاج إلى تفكير مستمر ووقت طويل .

أما وقد تكلمنا عن مبدأ الحرية عند متسورى فلنتقل إلى هذا المبدأ نفسه عند دالتن .

الحرية فى طريقة دالتن :

لقد راعت الأنسة هيلين باركهيرست صاحبة طريقة دالتن أن تجعل مدرستها مجتمعاً مماثلاً للمجتمع الحقيقى ، فعملت على أن يتمتع التلميذ فى هذا المجتمع بحرية كاملة ، لأنها وجدت بالبحث والتجربة أن الحرية تساعد الفرد على إظهار شخصيته والعمل على ترقية نفسه وتقويتها . لذا أرادت أن تعطى التلميذ الحرية التى تمكنه من الاستمرار فى العمل الذى يقوم به فى أية مادة يكون مشغولاً بها ، دون أن يتحكم فى رغبته وميله ناظر أو مدرس أو نظام « جرس » يدق معلناً انتهاء وقت العمل . لأن معنى انكباب التلميذ واهتمامه بالعمل الذى يعمله أن يكون أكثر قدرة على تفهم أى صعوبة تعترضه أثناء عمله ، كما يجعله أكثر انتباهاً وتحصيلاً للعلم الذى يدرسه بشوق ورغبة وبدافع من نفسه ، من ذلك التلميذ الذى يتلقى العلم على أساس الحصص والأوقات المعينة بطريقة دق «الجرس» المعروفة التى تقلل من نشاط التلاميذ . لأن ذلك الانتقال الفجائى من درس إلى آخر من شأنه قطع شغف التلميذ وميله الذى كان يشعر به فى درسه الأول ، بينما يولد فى نفسه السأم للدرس الذى سيلقى عليه ، ولا يرغب فيه ولا يميل إلى سماعه .

إن الحرية التى هى من أهم الأسس التى بنت عليها باركهيرست طريقها والتى منحها لتلاميذها ما هى إلا وسيلة لإمدادهم بالوسائل المختلفة التى تمكنهم من مواصلة دروسهم وتفهمها والبحث عن المعلومات والحقائق بأنفسهم ، يسرون فى عملهم بالسرعة التى تناسب كلا منهم وبالنظام الذى يختاره كل تلميذ دون ضغط خارجى . فهى بذلك تمنحه الحرية العقلية والحرية الخلقية الضروريتين لضمان سعادته .

الحرية في مدارس المشروع :

أما في مدارس المشروع فزى أن تلك الطريقة قائمة في الواقع على حاجة حقيقية يعبر عنها الأطفال ، وبمعنى آخر : قائمة على حرية الطفل في اختيار الموضوع الذي يريد دراسته ، وتفسير ذلك : أن اليوم المدرسي يبدأ في الصباح بحوار بين التلاميذ وأنفسهم ومع اشتراك المدرس - حول بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والحوادث اليومية . ومن تلك المناقشات تثار رغبة التلاميذ في الاستزادة من المعلومات والوقوف على بعض الأسرار . وهنا يقترح كل تلميذ مشروعاً ، ثم يتفق التلاميذ فيما بينهم على مشروع من المشروعات المقترحة ويحددون موضوعاً ، فيكتب في صيغة تثير فيهم الرغبة في البحث . ثم يأتي بعد ذلك التفكير في العمل والتنفيذ وفرض الحلول الممكنة . وأخيراً البدء بالتنفيذ والرجوع إلى الكتب و « المجالات » والصور والقيام بالرحلات المختلفة إلخ على أنه في كل خطوة من الخطوات السابقة نرى مبدأ الحرية ظاهراً فالتلاميذ هم الذين يقترحون موضوع المشروع ، وهم الذين يقومون بتنفيذه تحت إرشاد المدرس .

هذا وقد ظهرت طائفة من المقالات تضمنت ثورة في عالم التربية واختصت بموضوع الحكم الذاتي والتأديب المدرسي ولعل مصدر الوحي والإلهام في هذه الحركة بإنجلترا هو « هومرلين » صاحب الحركة المعروفة باسم « الجمهورية الصغيرة » المشتقة من حركة أمريكية أخرى واسعة الشهرة ومعروفة باسم Republic George Junior وسكان هذه الجمهورية أحداث مجرمون ، بنون وبنات يتراوح سنهم بين أربع عشرة سنة فما فوق ، تسلمهم هومرلين وفقاً لقانون الطفولة الصادر سنة ١٩٠٨ - وقد يندهش القارئ إذا عرف أنه بمضى الزمن قد تحول هؤلاء الأحداث المجرمون إلى أطفال أبرياء ، فلا غرابة بعد ذلك إذا أمانا بالطريقة العلاجية التي استخدمها هذا المعهد مع هؤلاء الأطفال . وأوضح نقطه في السياسة التي أتبعها هومرلين هي الحرية التي منحها سكان هذه الجمهورية ، فواطنوها لم يخضعوا لأي قانون سوى ذلك القانون الصادر عنهم أنفسهم ، وقد أداروا شئونهم وتحملوا أعباء المسؤولية الذاتية التي يتمتع بها أي فرد يعيش في ظل الديمقراطية .

على أن الدوافع التي أدت بهومرلين إلى نبذ الطرق التقليدية في العلاج الخلقى واضحة وبسيطة ، إذ أنه يرى أن إجرام الأحداث لا يرجع إلى عناصر فطرية ، ولكنه ينشأ عن سوء توجيه تلك الدوافع القوية التي لم تجد منفذاً طبيعياً لها ، فاضطرت لأن تسلك سبلا ملتوية بعيدة عن أن تكون اجتماعية - على أن العلاج النفسى لذلك لا يكون عن طريق الالتجاء إلى الكتب أو استخدام عنصر الشدة ولكن بطريق الإملاء ، وهو نفس الطريق الذى اتبعته جمهورية هومرلين ، فالحدث المحرم الذى لا يجد من يفهم طرق إصلاحه والذى كان مصدراً لحوف أبناء الحى يذهب إلى مزرعة Dorestokise فيجد عملاً بين زملاء قد شغفوا بمهنتهم فتحركت فيهم روح الابتكار ووجد كل منهم مجالاً لاستغلال طاقته ، ويجد أنه إذا اندمج في زمرة هؤلاء الزملاء تمكن من أن يكسب قوته بطريق شريف معتمداً على نفسه . لكنه إذا تخاذل عن العمل اضطر إلى أن يعيش مستجدياً لأصدقائه ومعرضاً لمظاهر الاحتقار . ولم يجرؤ أحد أن يثور مطلقاً ضد القانون الموضوع ، ذلك القانون الذى لم يستمد سلطانه إلا من الرأى العام الصادر عن جماعة كانوا في يوم ما أعضاء في عصابات . ومن العجب العجيب أن ترى مدمن الهرب من المدرسة أو الكسول المتقاعد قد أصبح نشطاً في جماعة الزراعة ، وصار ذلك الشخص الذى كان في يوم من الأيام طريد القانون ، من أكبر المحافظين عليه .

لقد أسهبنا في شرح آراء منتسورى وهومرلين وذلك لما لهما من أثر ظاهر . وقد كان لهذه الحركات فضل عظيم في المملكة البريطانية وفي كثير من الدول الأوربية ، فبعد ذلك الانقلاب الاجتماعى الروحى الخطير الذى نتج عن الحرب الكبرى أخذت هذه الحركات التربوية تعلن عن نفسها ، وبرزت النظم القائمة فعلاً وبدأ التغيير يلحق طرق التدريس والحكم الذاتى بالمدرسة . وليس من المبالغة أن نقول : إن هذه الحركات قد جذبت إليها المدارس ونالت إعجابها فبدأت تكسر قيود التقاليد القديمة ، وانتهى الأمر إلى رواج هذه الآراء الجديدة وانتشار طرقها حتى في أشد البقاع نقداً لها وسخرية منها . ويمكننا أن نلخص أهم مبادئ هذه الحركة الجديدة فيما يأتى :

أولاً : يجب أن تعدل سلطة الوالدين والمدرسين ، وأن يتحسن موقفهم إزاء الأطفال .

ثانياً : يجب أن نلقى أكبر قسط من المسؤولية على عاتق الأطفال أنفسهم كما يجب أن تصبح طرق التدريس مرنة بحيث تتسع فتقابل حاجات الأطفال المتعددة .

ثالثاً : يجب الاهتمام بأذواق الأطفال المتعددة وبقدراتهم المتباينة .
وبالجملة يمكن أن نقول : إنها حركة ترمى إلى تحقيق ذلك المبدأ الذى ينادى « بأن تلقائية الفرد تجد طريقها فى الحرية وروح اللعب » ولقد ارتبطت هذه الحركة منذ بدايتها برغبة فى إصلاح المادة والطريقة ، وإفساح المجال أمام مواهب الأطفال وقواهم الإبداعية والعمل على ربط الأعمال المدرسية بالحياة وجعلها أكثر إنتاجاً — وهذا الاتجاه الجديد الذى يرمى إليه إصلاح مناهج التعليم وإن كان ذا أهمية كبيرة فى ميدان التربية الحديثة فهو ليس كل شئ .

ثانياً : مبدأ اللعب :

ليس من العسير على القارئ ، أن يدرك أن هذا المبدأ يتضمن روح النظرية التى ينادى بها كبار رجال التربية . والتى تتلخص فى « أن الذاتية هى المدف الأسمى من التربية » ، على أن هذا المبدأ ليس ببدعة جديدة أدخلت على ميدان التربية ، فقد أصبح له من التأثير على التقدم التربوى اليوم ما لم يكن له فى أى وقت مضى . ومن بين الحركات التى خدمت هذا المبدأ بطريق مباشر أو غير مباشر الحركة التى ارتبطت باسم الدكتورة « ماريا منتورى » تلك السيدة التى جذبت انتباه العالم بطريقتها الجديدة .

طريقة منتورى :

ومن المحتمل جداً أن نجد فى طريقة منتورى أجزاء ذات أهمية ثانوية وقيمة وقتية ، ومن المحتمل أيضاً أن هذه الأشياء قد لا تحتل الثبات أمام التجربة — ولكن هذا لا ينطبق على المبادئ الأساسية لطريقة منتورى ولا يقلل مطلقاً من قيمة جهودها الجبارة التى ترمى إلى إلقاء مسؤولية تربية الطفل على

عاقته ، وتقليل عامل التدخل الخارجي في نموه إلى أدنى الحدود الممكنة . فقد رأت أنه ما دام الإنسان مدينياً بطبعه -- أن تضمن لأبنائها تلك الفرص التي تدرّبهم على أن يعيش بعضهم مع بعض ، وتربّيتهم على التعاون في اللعب وفي الجدل . وأن يكتسبوا كفاءة اجتماعية ومعلومات شخصية . على أن أهم ما يميز طريقة منتسوري هي أجهزتها التعليمية التي بواسطتها يتعلم للطفل ما هو جدير به أن يتعلمه في فترة حضائته وطفولته . مثل : حسن استغلال مقدراته الحركية ، والتمييز الحسي ، ومبادئ القراءة والكتابة والحساب . وطريقتها في ذلك هي أن يترك الأطفال لأنفسهم تحت إرشاد مرشديهم ، كل يتبع طريقته الخاصة ويختار المناسب له والأعمال التي في مقدوره أن يقوم بها ، ويتقدرون أنفسهم بأنفسهم . وتكون نتيجة ذلك أن يكتسب الطفل الصغير درجة عظيمة من صفات الابتكار والاعتماد على النفس وقوة التركيز ، وأن يتعود احترام الذات في الوقت الذي ينترم فيه الآخرين ، وأن يكتسب صفات الجهد والعمل الذي يهدف إلى غرض معين ، تلك الصفات التي قلما يتصف بها غيره من الأطفال الذين يتعلمون على الطريقة التقليدية - طريقة التعليم في الفصول - وليس هناك ما يجعلنا نشك في صحة هذه الأقوال . هذا وقد يقلع المشاهد عن زيفه ورجعيته إذا سنحت له الفرصة بأن يمر بفصل من الفصول به جماعة من الأطفال قد فك أسرهم وتخلصوا من قيود النظام القديم ، واستبدلوا بهذا النظام نظاماً آخر تمتعوا فيه بقسط وافر من الحرية - فسيجد فرقاً كبيراً بين ذلك الفصل القديم القلق الذي تسوده روح الفوضى التي لا غرض لها ، وبين الفصل الحديث الذي يشعر أفرادها بالسعادة وبالهدوء وبمحبّة العمل والميل إليه .

ومع أن الدكتور منتسوري لا تعترف مطلقاً بقيمة اللعب الإيهامي وما يصحبه من قصص خرافية ، إلا أننا نستطيع أن نقول : إن الروح العامة في طريقها مبنية على الاعتراف بمبدأ اللعب كوسيلة هامة لتربية الصغار . على أن هناك طرقاً أخرى من نفس هذا النوع وإن كانت أضيق منها مجالاً تستخدم في تعليم الأطفال في سن أكبر من ذلك . وأحسن مثل لهذه الطرق هو « طريقة البحث » .

وهي تلك التي تستخدم في تدريس العلوم والتي استخدمها « آرمسترنج »

Armstrong منذ أكثر من عشرين عاماً ، فدرست بها الكيمياء والطبيعة وغيرهما من المواد . وما دامت هذه الطريقة مؤسسة على مبدأ وضع التلميذ موضع الباحث الأصلي أو المكتشف الأول الذى قابلته مشكلته ، وأخذ يصارع الظروف فى سبيل الوصول إلى الحل فيمكن اعتبارها إذاً طريقة مؤسسة على مبدأ اللعب - ودكتور كيتينج Dr. M. Keatings برغم أنه من أشد النقاد فى تجريح طريقة البحث ومبدأ استغلال الحرية فى التربية « رغم هذا نجده صاحب فضل كبير فى استغلال مبدأ اللعب فى تدريس مادة التاريخ وفى استغلال الوثائق التاريخية . ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن حركة الكشف للبنين وما تبعها من حركة المرشديات للبنات ما هى إلا حركات مقصودة ترمى إلى تطبيق مبدأ اللعب فى التربية الأخلاقية .

على أن قادة التربية الذين حذوا حذو آرمسترنج ومنتسورى قد حاولوا تطبيق مبدأ اللعب فى تدريس مختلف مواد المنهاج ، وكان لهم فى ذلك فضل عظيم ، مبدأ تحقيق الذاتية :

على أن المبدأ الثالث من مبادئ التربية الحديثة هو مبدأ تحقيق الذاتية . وأول من نادى بذلك المبدأ هو « روسو » الذى رأى أن التربية يجب أن تكون سلبية من جانب المعلم ، بمعنى أن المعلم يكون مرشداً ، وقد استنكر الأسلوب الإيجابى لأن المعلم فيه هو الذى يعمل بنفسه ، بينما التلميذ فى هذه الحالة يتقبل الألوان التى تفرزها ريشة المصور .

وفى الوقت الحالى نرى أن كلا من «جون ديوى ، ونن» يناديان به ، إذ يقول الأول « ليكن الطفل محوراً للبداية ، ثم هو بعد ذلك المركز وهو الغاية من عملية التربية » هذا و«نن Nunn» يقول : « لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم إلا عن طريق النشاط المطلق للأفراد رجالاً كانوا أو نساء » .

ولقد وجدت التربية الحديثة بفضل اعتمادها على علم النفس أن لكل تلميذ ذاتية خاصة يجب احترامها والعمل على تقويتها ، وهى لذلك تمنحهم الفرص التى تمكنهم من إبراز شخصياتهم ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا عاملت المدرسة تلاميذها معاملة فردية ، لأن التلاميذ يختلفون فى الذكاء والمقدرة ، ويختلفون فى .

الجسم كما يختلفون في العقل ، والميول : فبعضهم يميل إلى شيء بينما يعرض عنه أخوه . فيجب إذاً أن يدرس كل منهم ما يتفق وسرعة فهمه وإدراكه ، وألا يتعلم إلا ما يحتاج إليه أغلبية التلاميذ ، ويجب أن تشجعه على أن يبحث ما يريد من المعلومات بنفسه وبمجهوده الفردي .

ومن أجل هذا بذلت محاولات عدة لحل مشكلة التعليم الفصلي منها ما يأتي :

(أ) الدروس الإضافية : فيقسم تلاميذ الفصل الواحد إلى ثلاثة أقسام : ضعفاء ، ومتوسطين ، وأقوياء ، فالضعاف تعطى لهم دروس إضافية في أوقات غير أوقات الدراسة العادية وبطرق موافقة لهم كأن يستكثر فيها من وسائل الإيضاح المختلفة ، ويقل فيها التفكير نوعاً ما ، بينما الأقوياء يساعدون على زيادة التعمق في مادتهم بدلا من أن يضطروا إلى السير بخطوات المتوسطين من زملائهم أو الضعاف بينهم .

(ب) الفصول المتوازية : لكي يكون كل جماعة من التلاميذ أكثر تجانساً فيما بينهم من حيث القوة العقلية ومقدار التحصيل وحتى لا يرهقوا بما لا يستطيعون القيام به أو يكلفون العمل بما هو أقل من قوتهم الطبيعية — يرى البعض الالتجاء إلى ما نسميه بالفصول المتوازية ، فغرفة السنة الأولى مثلا تقسم إلى ثلاثة فصول : في الفصل الأول الأقوياء ، وفي الثاني المتوسطون . وفي الثالث الأقل من المتوسط ، فالأقوياء يدرسون المقرر العادي دراسة وافية عميقة مضافاً إلى ذلك ربع المقرر من السنة التي تليها ، والمتوسطون يدرسون المقرر العادي ، والأقل من المتوسط يعطون ثلاثة أرباع هذا المقرر فحسب .

(ج) الاختيار : وهناك رأى يقول بأن يكلف التلاميذ دراسة بعض المواد الأساسية ، ثم يسمح لهم باختيار ما يميلون إلى دراسته بعد ذلك من المواد التي تدرس في المدرسة فيختار كل تلميذ ما تميل إليه نفسه أو ما يتصل بحياته العلمية والعملية في المستقبل .

(د) الفصول المتحركة : إذا كان هناك أحد التلاميذ قوياً في مادة وضعيفاً في أخرى . فإنه يتقدم في المادة القوية حسب قوته ، ويتأخر في المادة الضعيفة حسب ضعفه . وإذا ما انتهى في شهادته من المادة القوية يجب عليه أن يبقى حتى ينتهي من المادة التي هو ضعيف فيها .

وبمعنى آخر : إن التربية الحديثة تنهج إلى أن تكون التربية حسب القياس sur mesure بدلاً من تلك التربية الجاهزة التي لا تصلح لكل طفل ، والتي لا تلائم واحداً من الذين تلقى المصادفة في وقت واحد ؛ فلماذا لا نغني بأذهان التلاميذ ونفوسهم وعقلياتهم كما نغني بأجسامهم وجعل الملابس مناسبة لهم شكلاً وقدماً .

ومن ناحية أخرى نرى أن مبدأ الذاتية في المدرسة الحديثة يدخل تحته النظام المعروف باسم الحكم الذاتي ، وأساس ذلك إلقاء الجزء الأكبر من الحكم والإدارة على عاتق التلاميذ أنفسهم ، وتحميلهم مغبة سلوكهم . وعاقبة التصرف في أمورهم . فعندئذ تصبح سلطة المدرس والمدرسة قليلة جداً حتى لا تكاد تبين لها أثراً ، كما تصبح المدرسة أشبه ببلدة ديمقراطية يحكمها جماعة من النواب يختارهم التلاميذ بأنفسهم .

ولكن إلى أي حد طبقت المدارس الحديثة مبدأ الذاتية في مدارسها ؟

الذاتية في مدرسة دكرولي :

اتخذ دكرولي النشاط الذاتي للطفل مركزاً للتعليم . وذلك بأن جعله يلاحظ بنفسه ويعبر ، ويربط الحقائق الحاضرة بالماضية ، ونبعث في مطالبه وحاجاته لكي يعرف نفسه وما لبني جنسه عليه من فضل ، وما للبيئة من مآثر ، وبهذا يستطيع في المستقبل أن يكافح ويتصل بالحياة الصحيحة ، وهذا من أهم أسرار النجاح في الحياة العملية التي ننشدها . . .

ومن ناحية أخرى نرى أن دكرولي يقسم تلاميذ المدرسة على حسب ذكائهم ومواهبهم واستعدادهم العقلي ، ولا يزيد عدد تلاميذ الفصل الواحد عن عشرين أو خمسة وعشرين تلميذاً . ودكرولي يرى عدم زيادة هذا العدد حتى يتسنى

للمعلمين أن يتغلغلوا في حياة التلاميذ ، ويتفهموا طبائعهم الفردية ، ويوجهوا دقة التدريس الوجهة التي تتفق وهذه الطبائع .

أما التلاميذ الشواذ فلهم فصول خاصة يعاملون فيها بما يناسب استعداداتهم ، وما يتفق مع طبيعتهم على يد مدرسين مدربين على هذا النوع من التلاميذ . ولذا اشترط دكروى في مدرسيه أن يكونوا ملمين إلماماً تاماً بعلم النفس وبتبائع الأطفال وميولهم . كما تعلق مدرسته أهمية كبرى على الرحلات ، وهى تخصص أياماً لزيارة المتاحف والمصانع والآثار وغير ذلك . ويجمع الأطفال بأنفسهم في بعض هذه الرحلات نماذج من النبات والحشرات والصخور . ولهذا أثره من الناحيتين : العلمية والعقلية .

وأخيراً نرى أن تلك المدرسة تخلق في التلاميذ الثقة بالنفس ، وتربى فيهم الابتكار ، وروح الجماعة ، وعدم الاعتماد على الغير — بعقد مؤتمرات من حين إلى آخر يتناقشون فيها ويتناظرون ، ويلقون بعض المحاضرات في الموضوعات التي يختارونها بأنفسهم بتد موافقة المدرس .

مما سبق يتضح لنا كيف يتجلى النشاط الذاتى للطفل في مدارس دكروى . وفى مدارس منتورى : نرى هذا المبدأ ممثلاً أكبر تمثيل . فالتربية الحسية عندها ما هى إلا تربية ذاتية . ذلك أنه بالرغم من أنها تعتقد أن المدرس يجب أن يهتد الطريق ويرشد الطفل ، إلا أن هذا الطفل يجب أن يفكر لنفسه ويربى لنفسه . فيسمع الطفل بنفسه ، ويميز بين الألوان والأشكال والروائح بنفسه . وإليك مثلاً أولى الأجيحة التى توضع أمام الطفل وهو قطعة من قلوب يمكن أن يثبت بها عشرة أسطوانات مختلفة ، فيعطى الطفل هذه الأسطوانات جملة ، ويحاول أن يضع كلاً منها فى ثقبها الخاص بها فى قطعة الخشب . وإذا أخطأ الطفل ووضع قطعة فى غير ثقبها فإنه يلاحظ بنفسه أن وضعها أمر مستحيل فيحاول غيرها وهكذا .

وفى مدارس دالتن : نرى أن باركهيرست أرادت أن تدرى تلاميذ المدرسة تدريجياً على تصريف أمورهم بأنفسهم ، وتحمل مسئولية ما يقومون به من أعمال . فهى تعطى كلامهم عملاً يتعهد بإنجازه فى مدة معينة ، وله أن يسير فيه

بسرعته الخاصة وقدرته على الفهم والإدراك فهو الذى يقوم بالعمل بنفسه ، وهو الذى يرجع إلى الكتب والمراجع للبحث والدرس ، وإلى المعامل الطبيعية والكيميائية ، لإجراء التجارب بنفسه ، ويصل إلى النتائج بخبرته وجهوده الشخصية . وهو الذى يوزع وقته حسب ضعفه وقوته فى المواد المختلفة ، فإذا فرضنا مثلاً أن كان أحد التلاميذ مهتماً خاصاً بمادة التاريخ فأنجز صحيفة أعمال هذه المادة لكنه لم يستطع أن ينجز باقى عقود المواد الأخرى ، ووجد هذا التلميذ أنه ليس بينه وبين حلول الشهر الذى يجب أن يسلم فيه عقده إلا بضعة أيام مع علمه بأنه لا بد أن ينتهى من كل الأعمال التى بيده والمطلوب منه إنجازها — فإنه يبذل كل ما فى وسعه من جهد حتى ينتهى من المقرر المطلوب فى الميعاد الذى تعهد أمام مدرسه على إنجازها فيه .

وهذا التلميذ نفسه عندما يتسلم عقود الشهر الثانى يحاول أن ينظم وقته وألا يهمل بعض المواد ويهتم بالبعض الآخر حتى لا يقع فيما وقع فيه فى الشهر السابق . وبذلك يتعود التلاميذ توزيع أوقاتهم وحسن استخدامها معتمدين فى ذلك على أشخاصهم فقط . ومن جهة أخرى لا بد أن يتم التلميذ جميع المواد ، يستوى فى ذلك تلك التى يكرهها أو يميل إليها . وفى هذا تدريب للتلميذ على ما يصادفه فى الحياة نفسها من تحمل التبعات والمسئولية والقيام بأعبائها بدلا من الهرب منها . ثم إن التلميذ إذا غاب عن المدرسة ثم عاد إليها فإنه يبدأ عمله من حيث انقطع عنه .

وما تقدم ترى إلى أى حد تهتم مدرسة دالتن بالفروق الفردية .

ويتجلى الحكم الذاتى أيضاً فى هذه المدرسة إذ نرى التلاميذ يحافظون على النظام بأنفسهم . ولذا فهم يحرصون عليه فلا ضغط ولا إرهاب ولا ثواب بل التلاميذ أحرار فى تنقلهم وأعمالهم ، يجربون النظام ، يساعدهم فى ذلك ما حملتهم المدرسة من مسئولية وما منحهم من حرية .

نقد مبدأ الذاتية :

أما النقد الذى وجه إلى مبدأ الذاتية عند باركهurst فهو الخوف من أن هذا

النظام يزيد من كسالى الذين لا يميلون إلى العمل بطبيعتهم ، ولكن هذا الاعتراض مردود عليه بأن هذا التلميذ كغيره من حيث تعهده على إنجاز العقد وتنفيذه في ميعاد محدود .

وثمة نقد آخر وهو أن يخشى من هذه الطريقة على التلميذ الضعيف والغبي ، فمثل هذا التلميذ لا بد أن يعنى به المدرس عناية فردية بينما المدرسة الدالتونية لا تسمح بكل هذه العناية لأن من نظامها أن يترك التلميذ وشأنه ، ولا يلجأ إلى المدرس إلا عند الضرورة فقط ، كما أن المدرس الذى يعهد إليه بمراقبة عدد كبير من تلاميذ فرقة معينة - كما هو الحال في تلك المدارس - لا يجد لديه متسعاً من الوقت كى يعالج مثل هذه الحالة وإلا فإنه سوف يهمل عدداً من الآخرين .

هل يمكن إدخال طريقة دالتن في مدارسنا ؟

على أننا إذا حاولنا إدخال طريقة دالتن في مدارسنا فيجب أولاً وقبل كل شيء أن نوقف التلميذ على ما هو مطلوب منه عمله والقيام به في أثناء العام في كل مادة ويتفق التلميذ مع كل مدرس مادة على تقسيمها على أشهر السنة . وتسمى هذه الاقسام - صحف الأعمال - كما تسميها باركهوست ، وبمجموعة صحف الأعمال تكون العقد الذى يقوم المدرس الإخصالى بتحريه ويقوم التلميذ بتنفيذه ، ثم لا بد من تسجيل أعمال التلاميذ وتدوين نتائجهم ، لهذا يجب استخدام رسم بياني للتلميذ ، ورسم بياني للمدرس ، وسجل للحضور والغياب . ومن الضرورى كتابة بعض التعليقات للتلاميذ كنصحهم بالألا يحدثوا أصواتاً أو ضوضاء أثناء العمل في المعمل أو الانتقال من معمل إلى آخر .

رابعاً - مبدأ تعليم الحياة بالحياة :

لقد أثبتت التجارب أن طريقة التعليم الطبيعية هى بالممارسة والتجربة ، وليست بالإصغاء والاستماع ، كما أنه ليس المهم هو مقدار ما يعمله المدرس للتلميذ وإنما المهم هو ما يقوم به التلميذ بنفسه ، لذا يقول فريرير Ferrière في كتابه L'école Active بضرورة إدخال النشاط الطبيعى الحافز لميول التلاميذ - إلى

الدراسة ، فالتلميذ يجب أن يشترك في تعليم نفسه لأنه قبل المدرسة كان يتعلم كل شيء ، بنفسه عن طريق تجاربه الخاصة ، وكذلك حين يغادر المدرسة ويواجه الحياة العملية فإن عليه أن يعتمد على نفسه في مكافحة الصعاب وأن يتعاون أحياناً مع إخوانه في مكافحتها . فلماذا إذاً نجعل المدرسة وطرق التعليم مختلفة عن الحياة ومضادة لسنة الطبيعية الإنسانية من كل وجوهها ؟ ولماذا كان من الواجب أن يعيش التلميذ في المدرسة كما يعيش في خارجها . فعليه أن يستعيز عن الحياة خارج المدرسة بالحياة داخل المدرسة ، والحياة كلها كفاح ولا يصلح لها إلا من ألف العمل . فالإنسانية لم تتقدم في الأماكن الغنية بحاصلاتها السهلة الاستمرار ، وإنما تقدمت في الأماكن التي يحتاج الإنتاج فيها إلى بذل الجهد . والمدرسة يجب أن تكون صورة مصغرة للحياة ، تعطى الفرصة للنمو حسب ما تسمح به طبيعة التلميذ وميوله واستعداداته .

في مدرسة دكرولى :

تمتاز طريقة دكرولى بجعل المدرسة حياة ، ذلك لأن وضع الطفل في جو مدرسي يتفق وجو الحياة العملية يعلمه كيف يعيش في هذه الحياة العملية . ولذلك اتخذ دكرولى شعاره هذه العبارة « إعداد الأطفال للحياة عن طريق الحياة » . وينتج من هذا المبدأ أن المدرسة تهيئ الجو المدرسي اللازم لتربية التلاميذ جسمياً ، بواسطة الهواء الطلق والفضاء الواسع والحركة والنشاط ، وترقيته روحياً بواسطة المواد والحقائق التي تزوده بالآراء والمبادئ الراقية التي تكون أساساً لحياته الفردية والاجتماعية . وتحقيقاً لهذه الأغراض يقضى التلميذ جل وقته في الخلاء حيث يتعلم المواد الدراسية التي تلائم سنه وطاقته ، والتي تحتفظ بما عنده من مواهب نافعة ، وتحول ما عنده من نزعات وميول ضارة إلى ما هو أسمى وأعلا . إذن فهذه المدرسة ليست سجنًا بل هي الحياة التي يجبها كل إنسان . ولا شك « أن الحياة هي التي تعلم الحياة وتعد للحياة » ولقد عنى دكرولى بجعل المدرسة صورة من الحياة بحيث يتوفر فيها مظاهر الحياة النامية للإنسان والحيوان والنبات ومشاهد الطبيعة التي يتصل بها الأطفال اتصالاً يكسبهم التجارب النافعة . وما يساعد على تحقيق هذا المبدأ أن تكون المدرسة في بيئة طبيعية مزودة بمحاذق

مختلف أنواع النبات ، وحظائر الدواجن ، ومظاهر من الحياة المحيطة بالأطفال . وبذلك يتحقق الغرض المقصود من المدارس . ويمكن جعل حياة الأطفال حياة عملية تجريبية تكون صورة من الحياة المحيطة بهم . وفي هذا خير وسيلة للإعداد للحياة .

إن الحياة تتكون من الكائن الحي ، ومن البيئة التي يعيش فيها هذا الكائن والتي تؤثر فيه إلى حد كبير . وبما أن هدف مدرسة دكرولى هو إعداد الطفل للحياة ، فهي لذلك توفقه على أسرار هذه الحياة ، وعلى هذا نجد أن برنامج دكرولى يشمل :

- (أ) معلومات عن الكائن الحي وبخاصة الإنسان ، فالمدرسة تزود تلاميذها بالمعلومات عن أنفسهم وحاجاتهم ومثلهم العليا .
- (ب) معلومات عن البيئة التي تحيط بهم والتي يعيشون ويعملون فيها ، والتي فيها تحقق رغباتهم وكذلك معلومات عن المجتمع .

ويقسم دكرولى حاجات الإنسان الأولية إلى :

- (أ) الحاجة إلى الطعام .
- (ب) الحاجة إلى حماية النفس من العوامل الطبيعية .
- (ج) الحاجة إلى حماية النفس من الأعداء .
- (د) الحاجة إلى العمل والنشاط والتعاون والتقدم جسدياً وعقلياً بالرياضة والدرس .

وبدراسة الطفل لكل هذه الحاجات يكون فكرة واضحة عن العالم ، ويدركه إدراكاً تاماً — وهذه الدراسة تشمل جميع العوامل : من الأسرة ، إلى المدرسة ، إلى الإنسان والحيوان والنبات ، وكل ما يحيط بالتلميذ وما يشاهده من الظواهر الطبيعية . كما أن هذه الدراسة تجعل الطفل يتعرف أثر البيئة في الإنسان ، وعلاقة الإنسان بالبيئة ، وما يقوم به للسيطرة ، والتغلب على هذه البيئة وتسخيرها لصالحه وصالح الجماعة ، ويقف التلميذ على كل هذه المعلومات عن طريق المشاهدة والاختبار . فيشاهد كل ما يحيط به ، ويختبر كل ما حوله من الحقائق

والظواهر فيعرف ماله من حقوق وما عليه من واجبات .
ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل نرى أن من أهم مميزات مدرسة ذكرولى إشراكها أولياء الأمور في دراسة نظام المدرسة ، فتعقد لجان خاصة تسمى لجان أولياء الأمور للاشتراك في إدارة المدرسة ، وهنا تتجلى الصلة بين المنزل والمدرسة في تلك الاجتماعات التي يحضرها أولياء الأمور والمعلمين ، وهذه الاجتماعات آثار عظيمة أهمها :

(ا) أنها تزيد الصلة بين الآباء والمدرسين أو بين المنزل والمدرسة . وهما عاملان يكون أحدهما الآخر ولا غنى عن تضافرهما وتعاونهما في إعداد الناشئين للحياة .

(ب) وبها يتمكن المعلمون من معرفة ما تتجه إليه رغبة الآباء في تربية أبنائهم ، وما يسلكون من سبل في معاملتهم .

(ج) ويعرف الآباء كذلك وجهة نظر المدرسة ، ويطلعون على أساليبها في التربية والتعليم وبذلك تزداد ثقتهم بها ، ويلبون مطالبها تلبية مقرونة بالاعتناع بصواب ما تسير عليه من نظم .

(د) أما من جانب التلاميذ فإن هذه الصلة ترفع من شأن المدرسة ومعلميها في نظرهم وتزيدهم حباً فيها وإذعاناً لمطالبها .

(هـ) هذا إلى أن هذه الاجتماعات تلتقي فيها بعض المباحث التعليمية التي يعدها أحد آباء التلاميذ أو بعض رجال التربية أو غيرهم ممن تدعوهم المدرسة لهذا الغرض . وبعد سماع المحاضرة يتسامر الحاضرون في شؤون أبنائهم وفي أحوال المدرسة .

وفي مدارس المشروع : نجد أن مبدأ تعلم الحياة بالحياة إنما يظهر بأجلى وضوح في مدارس المشروع . ذلك لأن التلاميذ يتعلمون الحياة بالحياة أثناء قيامهم بمشروع ما يتعلمون كيف يتعاملون مع غيرهم ولا يعتمدون في دراستهم على الكتب ولا يحفظون المعلومات ولا يستظهرونها بل هم يدرسون ما يلزمهم من المعلومات وما يتصل بحياتهم وما يعترضهم من المشاكل ، لدرجة أننا لا نخشى

على تلاميذ هذه المدرسة من أن يكونوا متعطلين أو عالة على غيرهم بعد تركهم المدرسة .

وهاك مثلاً لأحد المشاريع التي قام بها تلاميذ السنة الثانية الابتدائية بالفصول التجريبية :

بعد مناقشة اتفق التلاميذ على بحث مشروع صناعة السكر . ثم سألوا مدرسيهم عن المصادر فأشار عليهم بالاطلاع على موضوع قصب السكر من كتاب المطالعة (مبادئ العلوم) وبعد ذلك طلب التلاميذ قطعة أرض يزرعون فيها القصب . وبعد اختيار الأرض والمناقشة في كيفية زراعتها اتفقوا على أن يتسموها فيما بينهم ، وقد تطلب هذا معرفة مساحة الأرض ثم معرفة طريقة القسمة . وبعد تقسيم الأرض وبدء عملية الزراعة أمطرت السماء فتناقشوا في المطر وهل يضر بالزرع ، وتطرق الحديث إلى أسباب المطر فدرسوا الضباب والسحاب وكيفية قياس المطر وعملوا نموذجاً للمقياس ، ودرسوا توزيع المطر في مصر .

ويمكننا تلخيص بعض الفوائد التي تعود على التلاميذ من هذا المشروع .

(أ) تضامن التلاميذ وتعاونهم ، وإيجاد روح الابتكار وتعويدهم الاعتماد على النفس .

(ب) ساعد المشروع على دراسة الحساب والهندسة بشكل عملي .

(ج) كسب التلاميذ مهارة يدوية أثناء الفلاحة وعمل نماذج للأدوات المختلفة .

(د) درس التلاميذ معلومات تاريخية عند بحثهم عن تاريخ زراعة القصب وصناعة السكر في مصر .

(هـ) درسوا كثيراً من المعلومات الجغرافية كالمطر وأسبابه إلخ .

(و) في رجوع التلاميذ إلى الكتب و « المجلات » تمرين على الاطلاع والاستفادة من الكتب بأنفسهم .

(ز) في تدوين التلاميذ لذكراهم (لخطوات المشروع) تمرين لهم على التعبير الإنشائي .

نقد طريقة المشروع :

يرى البعض أنها تنمادى مع ميول الأطفال فتجعلهم يتبعون رغباتهم الخاصة كما أنها تؤدي إلى التربية اللينة السهلة . ولكن هذا غير صحيح ، لأن كل مشروع يحتاج إلى جلد وسهر متواصل من جانب التلاميذ ، للتغلب على ما يصادفهم من المشاكل . فهو وسيلة تتمرين التلاميذ على الحياة الصعبة الحقيقية ، كما أنها لا تترك للتلاميذ الحبل على الغارب بل تتخذ ميولهم أساساً لتوجيههم وتعليمهم .

وثمة نقد آخر هو أنها تجر إلى دراسات ومشاكل لا حد لها ، لأن المشروع يجر إلى مشاريع أخرى ، ولكن هذا مردود عليه بأن حياة الإنسان كلها مشاكل لا حصر لها .

وستزيد القارئ تفصيلاً عن طرق التربية الحديثة في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

المراجع

1. J. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
2. J. Dewey : Schools of Tomorrow .
3. J. Dewey : Democracy and Education.
4. Bode : Modern Educational Theories.
5. Klapper : Contemporary Education.
6. H. Caldwell-Cook : The Play Way.